كيف يستفاد
من
الشعر الجاهلى
فى
دراسه جغرافية الجـ

للشعر الجاهلي مكانة مرموقة كابرز فنون الأدب العربي ، واستمرت هذه المكانة على مر القرون • ولقد أصبح الشعر الجاهلي مقصد كثير من الباحثين ينقبون بين أبياته عن كل ما يتعلق بحياة العرب قبل الاسلام • ومن حسن حظ الباحثين على اختلاف تخصصاتهم أن العرب قد توارثوا هذا التراث الأدبي « الشعر الجاهلي » وصانوه كامانة يرعونها ، وتعهدوه بالرواية والحفظ •

ويكفي أن نقول ان الشعراء العرب منذ أن قيل الشعر وحتى الآن ـ رغم تباعد الزمن واختلاف البيئات ـ لم يستطيعوا التمرد على هذه النظم والتقاليد التي صاغها هؤلاء « الشعراء الجاهليون » من أوزان وقافية • ولا تزال المحاولات العديدة المختلفة التي تحاول الفكاك من أسر « الأوزان » التي تعارف عليها هؤلاء « الجاهليون » مرفوضة من أكثرية الناطقين بالضاد ولا تلقى استحسانا أو آذانا صاغية •

ان من يدرس ما سلم من الضياع ووعته ذاكرة الرواة من الشعر الجاهلي يجده فنا متقنا وقافية ، وتقودنا هذه الحقيقة الى أن هذا الشعر لا يمثل المحاولات الاولى التي بدأها العرب في مجال الشعر بل انه نتاج محاولات ومراحل لا بد وأن يكون الشعر قد خاضها ومر بها حتى وصل الى هذا المستوى •

ـزيرة العربية

دكتور محمد محمود محمدين
أستاذ الجغرافيا المساعد بجامعة الرياض

ويرى « بروكلمان » (١) أن محاولات الشعر قديمة ، وأن ممارسة فن وصف الحيوان والطبيعة في شعر البدو يمثل ما كان عند أسلافهم الذين اتخذوا من ذلك وسيلة الى سحر المطر والصيد ·

وفي تتبعنا لبداية « الشعر الجاهلي » تستوقفنا كلمة « الشعر » قليلا ، ما أصل هذه الكلمة وماذا تعني ؟

يذهب بعض الباحثين الى أن الشعراء في الجاهلية كانوا هم أهل المعرفة ، ويستندون في ذلك الى أن « الشعر » اشتق من فعل « شعر » ــ على حد اعتقادهم ــ و « شعر » معناها في الأصل « علم » وبذلك يصير مفهوم كلمة « الشاعر » وفق هذا الاشتقاق « العالم » ويميل المستشرق جولدزيهر Goldziher (٢) الى هذا الرأي ويرى أن « شاعر » تعني « عالم » بمعنى أنه كان عالما بخصائص فنه وشاعرا بقوة شعره السحرية ، وقد أيد تريتون Tritton هذا التفسير في دائرة المعارف الالمانية ·

ويلقى هذا الرأي معارضة مؤداها أننا لا نجد في العربية فعل « شعر » بمعنى الف البيت أو القصيدة ·

ويرى فريق اخر أن كلمة « شعر » محرفة أو منقولة عن كلمة عبرية هي « شير » (٣) بمعنى الترنيمة أو التسبيحة القدسية ، ومن أنصار هذا الفريق المستشرقان باول هاويت ، ولندبرج ، وبعض الادباء العرب مثل سلامة موسى ، واحمد زكي أبو شادي في مقدمة كتاب العين سنة ١٩٣٤ م ·

ولم يسلم هذا الرأي كذلك من سهام المعارضين الذين يرون أن « الشين » العبرية لا تقابلها « شين » في العربية بل سين ، وأن « العين » في العربية لا تقابلها « ياء » في العبرية ، وهاتان حقيقتان يعرفهما تماما كل من تصدى لدراسة العلاقة بين العربية والعبرية ·

وأيا ما كان أصل هذه الكلمة فقد سجل العرب أخبارهم وظروف بلادهم الطبيعية في شعرهم ، فالشعر الجاهلي من أصدق الوثائق التي يمكن الاعتماد عليها في دراسة ظروف بلاد العرب الجغرافية ·

ويجب أن نعي جيدا أن صفة « الجاهلية » (٤) التي أطلقت على الشعر الجاهلي ليست مشتقة من الجهل الذي ضد العلم ونقيضه ، انما هي مشتقة من

الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق ، فهي بذلك تقابل كلمة الاسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجل .

واذا ما حاولنا أن نحدد عمر الشعر الجاهلي فاننا نجد أن أقدم ما نعرفه من الشعر المستند الى مصادر صحيحة نسبيا لا يمتد الى ما قبل المائة السابقة على موعد النبي عليه السلام بكثير . ويقول الجاحظ (٥) : أما الشعر فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امروء القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة ، ويرجع عمره الى مائتي عام قبل الاسلام .

وتشير كتب الادب واللغة الى نيف وثمانين (٦) شاعرا عاشوا في عصر الجاهلية ووصلت الينا أبيات من أشعارهم متفرقة في كثير من كتب التراث العربي .

أهمية الشعر الجاهلي ومجالات الاستفادة منه قبل أن نتعرض لمجالات الاستفادة من الشعر الجاهلي في دراسة جغرافية الجزيرة العربية ، ينبغي لنا أن نشير الى أهمية الشعر الجاهلي بصفة عامة .

ترجع أهمية الشعر الجاهلي في أنه أهم المصادر المتاحة التي نستقي منها الكثير من المعلومات عن الفترة السابقة للاسلام ، وكان أبو هلال العسكري محقا حينما قال (٧) :

لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها الا من جملة أشعارها فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبط آدابها ومستودع علومها .

ومن المعروف أن اهتمام العرب القدماء بالشعر قد فاق اهتمام كثير من الشعوب الاخرى ، وفي ذلك قال الجاحظ (٨) :

قال الهيثم وابن الكلبي وأبو عبيد ، فكل أمة تعتمد في استبقاء مأثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال ، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها .

وجاء في كتاب العقد الفريد (٩) عن الشعر الجاهلي : لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له « الشعر » ، أن عمدت الى سبع قصائد اختارتها من الشعر القديم ،

فكتبتها بماء الذهب في القباطي (١٠) المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة ، فمنه يقال مذهبة أمرىء القيس ، ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع (١١) ٠

ومن الجدير بالذكر أن نشير الى أن ما وصل الينا من الشعر الجاهلي ليس الا القليل من الكثير ولا يمثل الا ما استطاع الرواة أن يحفظوه من النسيان ، وفي ذلك يقول عمرو بن العلاء (١٢) : ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا ، لجاءكم علم وشعر غزير ٠

ومن الأمور الاخرى التي يجب الاشارة اليها أن جميع ما نعرفه من شعر الجاهلية (١٣) انما هو لأهل نجد والحجاز والبحرين (١٤) أو لمن سكن في هذه الأنحاء ، أما أهل الحضر من سكان اليمن ومهرة وحضرموت وعمان فلا يعرف لهم أبيات صحيحة الرواية لا بالعربية ولا بالحميرية ، ومن هنا فان كل ما جاء من وصف لظروف جغرافية يتعلق بصفة رئيسية بتلك المناطق التي جال فيها الشعراء الجاهليون وصالوا ٠

مجالات الاستفادة من الشعر الجاهلي في دراسة جغرافية الجزيرة العربية : أتاح الشعر الجاهلي أمام الدارسين لجغرافية الجزيرة العربية مجالات عديدة ومتنوعة ، يمكن أن نتناولها على النحو التالي :

أولا : الجغرافيا التاريخية للجزيرة العربية :

الجغرافيا التاريخية هي احدى فروع علم الجغرافيا ٠ وتهتم الجغرافيا التاريخية بدراسة الجغرافيا الطبيعية والبشرية للعصور التاريخية ، وفترات ما قبل التاريخ (١٥) ، وهي بهذا الوصف ليست فرعا من الجغرافيا الطبيعية أو البشرية ، وانما هي فرع جغرافي مستقل يدرس الجغرافيا بشتى فروعها لعصور أو فترات ماضية ٠

وتستند الجغرافيا التاريخية الى حقيقة هامة وهي أن ما نراه اليوم (على سبيل المثال) من مظاهر سطح الارض ليس الا صورة مؤقتة لصراع أبدي بين مظاهر سطح هذا الكوكب وعوامل التعرية المختلفة من رياح وأمطار وأنهار بالاضافة الى ما يقوم به الانسان من شق لأنفاق وطرق وترع ٠ وعلى الرغم من اختلاف تعريفات الجغرافيا التاريخية الا أن هناك سمات مشتركة بين هذه التعريفات ، وعلى سبيل المثال يرى براون (١٦) أن الجغرافيا التاريخية هي جغرافية الماضي ، ووصفها جريفث تيلور بأنها دراسة أي فترة تاريخية تحتوي على أدلة تاريخية ٠

ويقول عبد الفتاح وهيبه (١٧) : لعل أكثر مفاهيم الجغرافيا التاريخية شيوعا ذلك التعريف الذي يعتبرها العلم الذي يسعى لاعادة بناء جغرافيات الماضي ، ولا نقصد بجغرافيات الماضي الدراسات الاقليمية فقط بل كل فرع من فروع الجغرافيا بمفهومها الحالي من طبيعية وبشرية ٠

وتدرس الجغرافيا التاريخية بصمات التغير الذي ينتاب سطح الارض وتبحث في أسبابه وسبيلها الى ذلك دراسة ما يعثر عليه من آثار عضوية للنباتات والحيوانات٠ وتعرف هذه البقايا والآثار العضوية بالحفريات أو الأحافير (١٨) أو المستحاثات ٠ وأيا ما كان تعريف الجغرافيا التاريخية ، فان ميدانها يكاد يكون من الأمور المتفق عليها ، فهي تدرس فيما تدرس التغيرات الجغرافية عبر التاريخ ٠ ولئن تيسرت الحفريات التي تعتمد عليها دراسة الجغرافيا التاريخية للكثير من الأقطار فانه وحتى الآن لم تتيسر مثل تلك الحفريات على نطاق واسع بالنسبة لشبه الجزيرة العربية ، ويرجع ذلك الى أن المناخ الجاف قد ساد الكثير من جهاتها وأصبحت عمليات البحث ليست بالهينة في هذه المساحات الشاسعة ، وان كان قد تم العثور على أدوات حجرية ترجع الى العصر الحجري القديم الأسفل في غربي الربع الخالي ، وعثر كذلك على أدوات حجرية في شمال المملكة وذلك عند مد خط التابلين وترجع هذه الأدوات الى العصر الحجري الأوسط ٠ وهناك آثار بشرية أخرى في عدة مناطق متفرقة مثل منطقة الفاو ، وعيون الجواء ، مدائن صالح وغيرها ٠

وفي ظروف كظروف الجزيرة العربية « حيث لا تتوفر الوثائق التاريخية التي عثر عليها بشكل يتيح دراسة متكاملة عن الجغرافيا التاريخية للجزيرة العربية » يصبح الشعر الجاهلي أداة هامة ووثيقة نادرة في دراسة هذا الفرع الجغرافي، وبمعنى آخر يصبح نوعا من « الحفريات اللفظية » أو بقايا من كلام السابقين تصور لنا ظروف بيئتهم الطبيعية من مظاهر سطح ومناخ ونبات ، حتى لكاننا نرى ما نقرأ من شعرهم ونعايش ما نسمعه ٠

على أن هناك أمرا هاما نعيد الاشارة اليه وهو أن الشعر الجاهلي لم يشمل كل أطراف الجزيرة العربية وبقاعها بشكل تفصيلي وانما اقتصر في ذلك على نجد والحجاز والأجزاء الشرقية وذلك فيما كان يعرف بالبحرين بحكم مواطن الشعراء ٠

وعلى سبيل المثال وليس الحصر نورد بعض الأمثلة التي نوضح بها كيفية استفادة الجغرافيا التاريخية من الشعر الجاهلي :

قال الأعشي :

ولو أن دون لقائها   المروت دافعة شعابه
لعبرته سبحا ولو   غمرت مع الطرفاء غابه

يشير هذا التبيان الى وفرة المياه في وادي المروت لدرجة جعلته كالنهر بحيث يعبر سباحة ٠ ويستقي باحث الجغرافيا التاريخية من ذلك أن أمطار الماضي كانت أغزر من الأمطار الحالية ، كما أن كثرة الأودية وعمقها واتساعها تتآزر مع أشعار الجاهلية في تاكيد هذه الحقيقة ٠ وقد دلت الدراسات على أن أودية الرمة ، وحنيفة، والدواسر كانت من أعظم نظم التصريف النهري في الجزيرة العربية ٠ وتدل دراسات الشركات الاستشارية (١٩) على أن روافد وادي الدواسر كانت تحمل له كميات عظيمة من الماء والارسابات الفيضية من منطقة الدرع العربي وتتجه بها شرقا وقد أدى ذلك الى تكوين السهول الرسوبية الضخمة التي تغطي مئات الكيلومترات في مناطق الخماسين والسليل والتي يصل سمك طبقاتها الطميية الى مائة متر في بعض المناطق ٠

وفي معلقة لبيد (٢٠) وصف بارع لبقرة وحشية تعقبها الرماة بنبلهم ولما يئسوا أن يصيبوا منها مقتلا أرسلوا في اثرها جوارح الكلاب التي كانوا يستعينون بها في الصيد ، وما أن اقتربت الكلاب من البقرة حتى نشبت معركة حامية قتلت فيها البقرة كلبتين هما كساب وسخام وقال لبيد في وصف هذه المعركة :

حتى اذا يئس الرماة وأرسلوا
غضفا دواجن قافلا أعصامها (٢١)

فلحقن واعتكرت لها مدرية
كالسمهرية حدها وتمامها (٢٢)

لتذودهن وأيقنت ان لم تذد
أن قد أحم مع الحتوف حمامها (٢٣)

فتقصدت منها كساب فضرجت
بدم وغودر في المكر سخامها (٢٤)

من الأبيات السابقة يستطيع باحث الجغرافيا التاريخية أن يتعرف على نوع من الحيوانات البرية التي كانت تعيش في الجزيرة العربية وهي الأبقار الوحشية ٠ وقد حفل الشعر العربي بذكر أنواع عديدة من الحيوانات بعضها قد انقرض مثل

الأسود ، والحمر الوحشية ، والثيران البرية ، وبعضها الآخر لا تزال أعداد قليلة منها موجودة مثل الثعالب والذئاب وغيرها ·

وحينما يدرس الباحث البيئات الحالية التي تعيش فيها أمثال الحيوانات التي انقرضت في الجزيرة العربية فانه يتعرف بصفة عامة على ما كان يسود الجزيرة من حياة نباتية ومناخية ·

ومن الأبيات السابقة أيضا يمكن التعرف على نمط من أنماط النشاط المعيشي للعرب في الجاهلية ألا وهو الصيد باستخدام الكلاب · ووفق هذين المثالين السابقين من أشعار « الأعشى » و « لبيد » يمكن أن نتعرف من أشعار الجاهليين (٢٥) على كل الظروف البشرية الممثلة في النشاط الاقتصادي والعادات والتقاليد وغير ذلك مما تهتم به الدراسات الجغرافية ·

ثانيا : التعرف على تطور الفكر الجغرافي عند العرب :

تشعبت معارف العرب الجغرافية ونمت بحكم معايشتهم لظروف بيئتهم واعتمادهم على الترحال والتنقل وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء (٢٦) ، لأن من كان بالصحاصح الأماليس (٢٧) ـ حيث لا امارة ولا هادي مع حاجته الى بعد الشقة ـ مضطر الى التماس ما ينجيه ويؤديه ، ولحاجته الى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة اضطرته الحاجة الى تعرف شأن الغيث ، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كواكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها ··

وسئلت اعرابية فقيل لها : أتعرفين النجوم ؟ قالت سبحان الله أما أعرف أشباحا وقوفا على كل ليلة !

وفي مجال معرفة الجغرافيا الفلكية عند العرب يقول صاعد بن أحمد (٢٨) :

كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك من أسباب المعيشة لا عن طريق الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم · ولقد ضبط العرب مقدار السنة الشمسية برصد الأنواء فكانوا أيضا يجعلونها مواقيت ديونهم وغيرها فيقولون مثلا (٢٩) :

« اذا طلع النجم » ويقصدون بالنجم الثريا •

واهتم العرب بالرياح والأمطار لأهميتها القصوى بالنسبة لحياتهم التي تعتمد على الأعشاب في الرعي ، والأعشاب لا تنبت الا بعد سقوط الأمطار ، وسقوط الأمطار يرتبط برياح معينة • وكان العرب يتشاءمون بالرياح الشمالية بسبب شدة برودتها ولأنها تنذر بالقحط (٣٠) وتنزل الجدب ، وكانوا يبتهجون اذا هبت **الصبا** وهي التي تجيء من مطلع الشمس ، أما **النكباء** (٣١) فهي كل ريح يكون مهبها بين مهبي ريحين • وذكر العرب **الهيف** وهي الريح التي تجيء من قبل مهب الجنوب ، **والدبور** التي تأتي من الغرب •

وقال ذو الرمة :

أهاضيب (٣٢) أنواء وهيفان (٣٣) جرتا
على الدار أعراف (٣٤) الجبال الأعافر (٣٥)
وثالثة تهوي من الشأم حرجف
لها سنن فوق الحصى بالأعاصر
ورابعة من مطلع الشمس أجفلت
عليها بدمعاء المعا فقراقر
تحنثها النكب السوافي فأكثرت
حنين اللقاح . القاربات العواشر

وقد وصف أحد الشعراء شدة حرارة رياح السموم فقال :

وهاجرة تشوي مهاها سمومها
طبخت بها عيرانة واشتويتها

وقد وصف بشر بن أبي خازم أثر الرياح في أسفاء الرمال وتغيير ملامح الأماكن بقوله :

تغيرت المنازل من سليمى
برمة فالكثيب الى بطاح
فأجزاء اللوى فبراق خبت
عفتها المعصفات من الرياح

وأجاد العرب دراسة ظواهر المناخ وعلاقتها بالمطر واستخدموا هذه العلاقات في أشعارهم ، وعلى سبيل المثال فالرعد مقدمة الغيث واحدى علاماته وقد استغل الأعشي العلاقة بين الرعد والمطر في قوله :

والشعر يستنزل الكريم كما استنزل رعد السحابة السبلا ٠

وبلغ من أهمية المطر عند العرب أن جعلوه غاية دعائهم بالخير لمن يرجون شكره ، فيقولون « سقى الله فلانا الغيث » ، وحتى الأيام طلبوا لها السقيا فاذا ذكروا أياما طابت لهم قالوا : سقى الله تلك الايام ٠

وجاء في أشعار النابغة الذبياني في رثائه للنعمان بن الحارث :

سقى الغيث قبرا بين بصري وجاسم
بغيث من **الوسمي** (٣٦) قطر ووابل

وقد ذكر الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب (٣٧) الأساليب التي كانت تلجأ اليها العرب في سنوات الجدب ومنها نار الاستمطار ٠ وهي النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية حين يجتمعون ويجمعون عددا من الأبقار ثم يعقدون في أذنابها وعراقيبها الأحطاب (٣٨) ثم يصعدون بها فوق جبل ويشعلون فيها النيران ويرفعون أصواتهم بالتضرع والدعاء ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء (٣٩) :

ويسوقون باقرا يطرد السهل
مهازيل خشية أن يبورا
عاقدين النيران في شكر (٤٠)
الأذناب عمدا كيما تهيج البحورا
فاشتوت كلها فهاج عليهم
ثم هاجت الى صبير صبيرا (٤١)
فرآها الاله ترشم بالقطر
وأمسى خيامهم ممطورا

والحقيقة العلمية التي يجب أن نشير اليها أن فكرة تكثيف السحب أو ما يطلق عليه « المطر الصناعي » مبنية على مثل ما كان يفعله العرب في الجاهلية ، اذ أن الطائرات تستخدم يوديد الفضة (٤٢) لانتاج الدخان الذي تصبح جزئياته نويات

يتكثف حولها بخار الماء الموجود في السحب ويطلق على هذه الجزئيات نويات التكثيف Condensation nuclci (٤٣) ، وفي فرنسا أجريت تجارب حديثة أطلق عليها تجارب « المتيوترون » Meteotron ، وتعتمد هذه التجارب على أشعال البترول من خلال أعداد كبيرة من الشعل تنتشر في مساحة تصل الى أربعة آلاف ياردة مربعة وتتخذ هذه المساحة شكلا مسدس الأضلاع . وتستخدم هذه الشعل الزيتية نحو مليون طن من الوقود كل دقيقة ، وقد أدت هذه التجارب الى اسقاط المطر .

ولو قارنا ذلك بما كان يفعله العرب قديما نجد أن أساسه العلمي هو أن احداث النار يؤدي الى تصاعد الأدخنة التي تتكون من ذرات دقيقة من الكربون تكون بمثابة « نويات للتكثيف » ، ويشابه حرق الأبقار على الجبال استخدام الطائرات حاليا لاحداث الأدخنة .

وبالنسبة **لمظاهر السطح** فقد ميز الشعراء الجاهليون بين كثير منها مثل الجبال التي تناولوا وصفها في أثناء حديثهم عن قطع المفاوز ، وتفاخر بعضهم بتسلق هذه الجبال مثل « تابط شرا » .

الذي قال :

وقلة كسنان الرمح بارزة
ضحيانة في شهور الصيف محراق
بادرت قنتها صحبي وما كسلوا
حتى نميت اليها بعد اشراق

ويصف « تابط شرا » هذه القمة الجبلية بأنها تشبه سنان الرمح مدقتها وطولها ويفخر بأنه سبق أصحابه ليس بسبب كسلهم ولكن بفضل قوته .

وقد وصف عمرو بن كلثوم التغلبي (٤٤) جبل اليمامة المشهور « جبال طويق » في قوله :

فأعرضت اليمامة واشمخرت
كأسياف بأيدي مصلتينا .

وقد وردت في الشعر الجاهلي اشارات كثيرة الى « الحرار » . ووصف علماء

العرب الحرار فقالوا (٤٥) : الحرة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار · وقد ذكر النابغة الذبياني في أشعاره « حرة النار » وهي الحرة التي كانت لا تزال ثائرة حتى عهد الخليفة عثمان بن عفان وهي قريبة من المدينة ، وكان آخر حدث بركاني شهدته شبه الجزيرة العربية في سنة ١٢٥٦ م حين ثارت احدى حرار شرقي المدينة لبضعة أسابيع (٤٦) ·

وذكر بشر بن أبي خازم حرة ليلى في قوله :

معالية لا هم الا محجر
وحرة ليلى السهل منها **ولو بها** (٤٨)

ووصف العرب في أشعارهم « **الدارات** » وهي كل ما اتسع من الارض وأحاطت به الجبال (٤٩) ، وقد أحصى ياقوت الحموي (٥٠) نيفا وستين دارة استخرجها من كتب العلماء المتقنة وأشعار العرب المحكمة ، ومن أشهر الدارات « دارة جلجل » التي ورد ذكرها في شعر أمرىء القيس في قولته :

ألا رب يوم لي من البيض صالح
ولا سيما يوم **بدارة جلجل**

وقد جاء في كتاب جزيرة العرب للأصمعي أنها من منازل حجر الكندي بنجد ، وذكر ابن بليهد أنها دارة جلاجل · وأطلق العرب على التكوينات الحصوية والرملية المختلطة التي تبرق بلون حجارتها تعبير « **البرق** » ·

وتنيف برق ديار العرب على مائة كما ذكرها الزبيدي (٥١) · وغالبا ما اتخذت بعض هذه البرق أماكن لاستقرار بعض القبائل ، ومن هذه البرق « برقة ثهمد » التي افتتح بها طرفة معلقته فقال (٥٢) :

لخولة أطلال **ببرقة ثهمد**
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وبرقة الروحان التي وردت في شعر عبيد حين تحسر على تفرق قومه :

لمن الديار **ببرقة الروحان**
درست وغيرها صروف زمان

وأطلق العرب تعبير « الرياض » على الأحواض الصغيرة التي تنحدر اليها مياه الأمطار فتستريض فيها ، وذكر ياقوت الحموي (٥٣) أكثر من مائة وثلاثين روضة ، ومن الأمثلة التي ورد بها ذكر الرياض ما قاله لبيد (٥٤) :

هلكت عامر فلم يبق منها
برياض الأعراف الا الديار

وقد وردت أوصاف لظاهرات جغرافية تضاريسية أخرى مثل الأودية والكثبان الرملية والهضاب التي حفل بها الشعر الجاهلي بحيث لا نجد داعيا للمزيد من الأمثلة التي ما قصدنا من ذكرها الا لتكون نماذج للاستشهاد بها .

ثالثا : تحقيق بعض المصطلحات الجغرافية التي استخدمها العرب

ان ظروف الجفاف التي حلت بالجزء الأكبر من جزيرة العرب دفعتهم الى الاهتمام بالمطر والتطلع نحو السماء ومراقبة الأجرام السماوية ومحاولة ربط سقوط الأمطار بالنجوم ، وقسموا مدار القمر الى ثمان وعشرين منزلة وكل منزلة ترتبط بمجموعة من النجوم ، وأطلق العرب تعبير « **النوء** » على سقوط المنزلة بالمغرب ، ونسبوا الى « **النوء** » كل ما يحدث من رياح ومطر وأصبحوا يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا . وتستمر كل منزلة ما بين غروبها وطلوعها ثلاثة عشر يوما.

وقد حدث اختلاف وتضارب في تحديد مفهوم « النوء » عند علماء اللغة (٥٥) ، فمنهم من نسب الى المنزلة ما يكون من أولها فقط ، ومنهم من وقت لغروب كل منزلة أو طلوعها أياما معدودة لنوئها أو بارحها فاذا انقضت هذه المدة لم ينسب اليها ما يكون بعدها ، قال البيروني (٥٦) « وبالقول الأخير أخذ الجمهور » .

وقال بعض علماء اللغة أن النوء منسوب الى طلوع المنزلة وقت طلوع الشمس لا الى غروبها في هذا الوقت .

وقد استفاد المستشرق الايطالي « نلينو » من الأشعار الجاهلية في الانضمام الى الذين يرون أن النوء هو غروب المنزلة وذلك بعد أن درس بعض الأبيات لعدي بن زيد العبادي باحدى وعشرين سنة ، ويقول عدي :

عن خريف سقاه نوء من الدلو
تدلي ولم توار العراقي

وبالرجوع الى الجداول الفلكية « الزيجات » تبين « لنلينو » أن الدلو كان يطلع بالغدوات يوم ٩ مارس ، ويغرب يوم ٨ سبتمبر ، فاذا ذكر الشاعر في بيته الخريف (وهو اسم أول مطر بعد الصيف) فمعنى ذلك أنه أراد بالنوء ما يكون من الأمطار عند غروب تينك المنزلتين ٠

رابعا : تحقيق أسماء الأعلام الجغرافية ودراسة تطورها :

ويهتم بهذه الدراسة علم الأسماء الجغرافية أو « التبونيمي » Toponymy ويرتبط هذا الفرع ارتباطا وثيقا بالجغرافيا الاجتماعية والجغرافيا التاريخية(٥٧)٠

وقد أسهم في هذا المجال بعض المفكرين والأدباء السعوديين المعاصرين ، وقد اعتمدوا في ذلك اعتمادا كبيرا على الشعر الجاهلي ، ومن أبرز هؤلاء ، الباحث المحقق محمد بن عبدالله بن بليهد ، وعلامة شبه الجزيرة العربية حمد الجاسر ، والاديب المعروف عبدالله بن محمد بن خميس ، والباحث المعروف الدكتور عبدالله الوهيبي ٠

وعلى الرغم مما بذله هؤلاء المخلصون للتراث العربي ، الا أن هذا المجال ما زال بكرا ويتطلب الكثير من البحوث والدراسات وبذل المزيد من الجهد والعناية٠

ويقول عبدالله الوهيبي (٥٨) فيما يتعلق بالاعتماد على الشعر في تحديد وتحقيق الأسماء الجغرافية « ولكن ينبغي أن تكون على حذر دائم لما قد يوقعنا فيه اعتمادنا على الشعر وحده فيما يختص بالأماكن الجغرافية من أخطاء ، لا في قراءة اسم المكان فقط بل وفي تحديده » ٠٠ وينشأ هذا الخطأ كذلك من أن بعض المواقع يسمى باسم نوع من الشجر ٠٠٠ أو باسم لون من الألوان ٠٠٠ أو حتى باسم حوادث تاريخية وكل ذلك يمكن أن يوجدفي في أكثر من منطقة بل انه يوجد في شمالي الحجاز وحده أكثر من مكان بمسمى واحد مثل الرحبة والسياد والمعدن ورابغ وأيلة والشجرة ونخلة وغير ذلك كثير ٠

ويشير حمد الجاسر (٥٩) الى أنه قام بجولات طويلة قطع فيها آلاف الأميال في شرق الجزيرة وفي وسطها وفي شمالها وفي غربها وفي جنوبها وخرج من ذلك كله

بنتائج قيمة منها ، اضطراب تحديد المتقدمين لمواضع وردت في الشعر القديم اضطرابا يقف منه الباحث موقف الحيرة ، بسبب تضارب الأقوال ، كما أن المتقدمين قد أوردوا أقوالا مختلفة متضاربة في تحديد موقع ما ، فهناك من يقول : انه في بلاد بني فلان ، وآخر يخالف هذا القول ، وثالث يبعد الشقة ، ولم يلاحظ كثير من المتقدمين من المؤلفين أن الاسم الواحد قد يطلق على مسميات عديدة ، ولم يدرك بعضهم أن القبائل من طبيعتها نقل كثير من أسماء بلادها المحبوبة الى أماكن أخرى، ومن ثم نجد الخطأ في تحديد المواضع .

وقد ذكر ابن خميس في تحديده لجبل «الستار» قول ابن بليهد الذي جاء فيه : الستار في بلاد العرب الذي رأيته وعلمته اثني عشر جبلا .

ويعلل حمد الجاسر (٦١) ظاهرة اشتراك أكثر من مكان في اسم واحد وان كانت المواقع متباعدة بقوله :

هناك أسماء تشترك في صفاتها من حيث التسمية ، ومن عادة العرب تسمية الموضع بصفة قريبة من طبيعته ، ومن هنا نشأ اطلاق الاسم الواحد على **مسميات** (٦٢) مختلفة ، تتصف بصفة واحدة ، وان كانت المواقع متباعدة ، وهذا مما لم يلحظه كثير من المؤلفين .

وقد حقق حمد الجاسر بعض الأسماء وحدد بعض المواضع وعلى سبيل المثال تحديد موقع مدينة « جرش » (٦٣) المدينة التاريخية التي تضاربت الآراء في تحديدها فمن قائل أنها « بلجرشي » (٦٤) الالية ومن قائل انها « أبها » ، ويتفق حمد الجاسر مع ما يراه الشيخ علي بن عبدالله بن حميد من أن « جرش » تقع جنوب شرقي مدينة أبها بما يقارب ٤٠ كيلومترا في أعالي وادي بيشة .

ومما وصل اليه ابن بليهد من دراساته التي اعتمد فيها كثيرا على الشعر الجاهلي أن « الحزن » هو « الحزل » (٦٥) ، و « كثيب الغينة » هو « عرق بنبان » . ومن أمثلة ما ذكره عبدالله بن خميس (٦٦) : « ضرماء » محرفة عن « قرماء » ، و « الرغام » هو « عريق البلدان » ، و « برقة خنزير » هي « خشم العان » . واعترض ابن خميس على ما يقع فيه كثير من الكتاب في رسم كلمة « مرأة » بالتاء المفتوحة « مرات » ، وأشار الى أن كتابة « مرات » بالتاء المفتوحة غلط يجب الانتهاء عنه ، واستشهد بما يؤيد رأيه في قول ذي الرمة (٦٧) :

ولما وردنا مراة اللؤم غلقت
دساكر لم ترتفع لخير ظلالها

وقد ذكر ابن بليهد (٦٨) قول امرىء القيس :

اقب رباع من حمير **عماية**
يمج لعاع البقل في كل مشرب

اي تحديده لتعبير « عماية » قال : وقد اختلفوا في عماية ، منهم من قال انها بالبحرين ، ومنهم من قال انها في عالية نجد في سواد باهلة ، والروايتان كلتاهما مجانبة للصواب ، فعماية جبل عظيم في عارض اليمامة · وعماية وحدها جبل ذا هضبات متقاربة كان ذؤبان العرب في الزمن القديم يأوون اليها فاذا دخل أحدهم عماية عمى خبره ، ومسالكها منيعة ، اذا دخلتها لم تهتد الى طرفها كأنك أعمى ، فمن هنا سميت عماية ، وقد زال اسمها اليوم ·

ويعتقد كاتب هذا المقال أن بالمنطقة الشرقية ، « التي كانت داخلة فيما يعرف بالبحرين قديما » جبلا تنطبق عليه صفة « العماية » وهو « جبل قارة » بالاحساء ، على أن ما قصده امروء القيس فقد يكون ما ذكره الساعر الكبير الشيخ محمد بن عثيمين من وجود عمايتين بين بريك وبرك ، وبين برك والأفلاج ، أي أن العمايتين على جانبي وادي برك ، وقد أخذ البليهد رأيه عن بن عثيمين ·

ويجب أن نشير الى أن تحقيق الأسماء ومواضعها من أشق الأمور واصعبها ويرجع ذلك الى التقصي والتحقيق وتجشم السفر · ويذكر فستنفلد (٦٩) Wustenfeld (وهو من الذين اهتموا بدراسة جغرافية بلاد العرب ، وذلك في كتابه « البحرين واليمامة " Baherein und Yemama " » أن وجود الأعلام الجغرافية عند الشعراء يمثل بالنسبة لأبحاثنا مادة لا تقدر بثمن ، وقد استقى مادته من البكري وياقوت الحموي وغيرهما من الذين بذلوا مجهودا كبيرا في جمع الأسماء وتحقيقها وتجشموا السفر الى مواضع نائية ليتحققوا بأنفسهم من مواقع المواضع التي ذكرها الشعراء ويسألوا الأعراب عنها ·

خامسا : الاستفادة من المصطلحات ذات الصبغة الجغرافية الواردة في الشعر الجاهلي وذلك في ترجمة المصطلحات الجغرافية ·

ان من يتطلع في الكتب الجغرافية العربية ، يجد أمرا عجيبا وهو اختلاف الجغرافيين في ترجمة المصطلحات الجغرافية الدالة على معان واحدة، حتى أن القارىء المبتدىء ليقع في البلبلة والحيرة والاختلاط ، وبعض المترجمين يترجم الاصطلاح الأوروبي بلفظ معين ، ثم اذا صادمه نفس الاصطلاح الأوروبي ترجمه بلفظ عربي آخر وقد يكون ذلك في نفس المقال أو الكتاب الواحد · واذا كان الأمر كذلك بالنسبة لكاتب واحد فماذا نتوقع اذن بالنسبة لعديد من الجغرافيين في الأقطار العربية العديدة ؟ ليس الا الاختلاف والفوضى في المصطلحات والتعبيرات الجغرافية مما لا يسمح بوجود مدرسة جغرافية عربية ، وعلى سبيل المثال يطلق على نهاية الأودية الغرينية في مصر « مروحة غرينية » (٧٠) وفي سوريا « مخروط الانصباب » وسبب ذلك أن هذا التعبير قد ترجم في مصر عن " Alluvial Fan " وفي سوريا عن " Cone de dejection "

ومن واقع هذا الاختلاف الذي يتزايد يوما بعد يوم بازدياد حركة الترجمة ، ينبغي علينا أن نعود الى تراثنا العربي ولا شك أننا سنجد الكثير مما يعين في توحيد المصطلحات الجغرافية ، وعلى سبيل المثال نذكر بعض النماذج التي تؤيد ذلك :

قال امروء القيس :

قفا نبك من ذكر حبيب منزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

السقط هو الرمل المنقطع ، واللوى : الرمل الملتوي ·
وقد ذكرت في الشعر الجاهلي أسماء كثيرة لأشكال الكثبان الرملية ، منها . الكثيب والنق ، والحقف والدعص ، والحبل وهو الكثيب المستطيل ·

وقد صنف العرب السحب ووصفوها فمنها « العراض » اذا كان ذا برق ورعد، واذا كانت السحب متراكمة فهي « الكرفىء » ، واذا كانت سوداء فهي « طخياء » ·

وقد أورد الثعالبي (٧١) ثمانية وثلاثين صنفا واسما للسحب كما ذكر خمسة وثلاثين اسما للمطر وقد وردت هذه الأسماء والصفات في الشعر الجاهلي ·

وخلاصة القول أن الشعر الجاهلي يمكن أن يكون ذا قيمة وحدوية في مجال الترجمة بحيث تكون هناك مصطلحات جغرافية عربية واحدة ، ولا تتعدد هذه المصطلحات كما هو موجود الآن بشكل يدعو الى الدهشة والتعجب ·

وبعد فهذه هي المجالات التي يمكن أن تستفيد منها الجغرافيا من الشعر الجاهلي كما تراءت لكاتب هذا المقال · وما زال هذا الموضوع في حاجة الى دراسات تفصيلية ودقيقة حتى نستفيد من هذا التراث الخالد · وليس هذا المقال الا ربتة خفيفة على أكتاف الجغرافيين العرب ليلتفتوا الى تراثهم ويعطوه ولو قدرا قليلا من اهتمامهم الذي أصبح أسيرا للثقافات الغربية ·

خاتمة

يرجع ما وصل الينا من الشعر الجاهلي الى نحو قرنين قبل ميلاد النبي عليه السلام ، ويسند هذا الشعر الى نيف وثمانين شاعرا · ولقد تناول الشعر الجاهلي كل ما يتعلق بحياة العرب حتى لقد قال أبو هلال العسكري ان الشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبط آدابها ومستودع علومها ·

وقد أتاح الشعر الجاهلي مجالات كثيرة أمام الجغرافيين لدراسة جغرافية الجزيرة العربية · ومن هذه المجالات دراسة الجغرافيا التاريخية للجزيرة العربية أي دراسة الظروف الجغرافية في العصور التاريخية الماضية ، كما يفيد الشعر الجاهلي في دراسة تطور الفكر الجغرافي عند العرب ، وتحقيق بعض المصطلحات الجغرافية التي استخدمها العرب الى جانب تحقيق أسماء الأعلام الجغرافية ·

ويمكن أن يهم الشعر الجاهلي في حركة الترجمة بحيث يستعان بالمصطلحات العربية الأصيلة مما يوحد هذه المصطلحات المترجمة ويعالج ما يسود الآن من فوضى نتيجة اختلاف الأقطار والتعصب لبعض المصطلحات التي تترجم ترجمة « قاموسية » عن اللغة التي أخذت منها دون نظر الى التراث العربي ·

الهوامش والمصادر

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ص ١ ، دار المعارق ، الطبعة الثانية ، ص ٥٦ .

(٢) كارل بروكلمان ، المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(٣) احمد امين ، فجر الاسلام ، ص ١ .

(٤) شوقي صنيف ، العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السابعة ، ص ٧٩ .

(٥) الجاحظ ، كتاب (تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة الحلبي ، القاهرة ، سنة ١٩٤٣ ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٦) كارلو نلينو ، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني امية ، دار المعارف بمصر ، ص ٦٥ .

(٧) ابو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص ١٠٤ .

(٨) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج١ ص ٣٦ .

(٩) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، المطبعة الأزهرية ، ج ٣ ، ص ٩٨ .

(١٠) ثياب كتانية تنسب في صناعتها لأقباط مصر .

(١١) المذهبات اسم للمعلقات ، ومن اسمائها الاخرى ، السبع الطوال ، المشهورات ، السموط .

(١٢) ابن سلام ، طبقات الشعراء ، ص ١٠ ، فوزي عطوي ، المعلقات العشر ، ص ١٣ .

(١٣) كارلو نلينو ، تاريخ الآداب العربية ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(١٤) المقصود بالبحرين هنا الأجزاء الشرقية من نجد المطلة على الخليج العربي .

(١٥) يوسف توني ، معجم المصطلحات الجغرافية ، بدون تاريخ ، من ص ١٠٤ ــ ١٠٥ .

(١٦) محمد السيد غلاب ، يسرى الجوهري ، الجغرافيا التاريخية ، سنة ١٩٦٨ ، ص ٩ .

(١٧) عبد الفتاح محمد وهيبة ، مصر والعالم القديم ، جغرافيا تاريخية ، سنة ١٩٧٢ ، ص ٩ .

(١٨) اقر مجمع اللغة العربية استخدام لفظ « الاحافير » ويستخدم لفظ المستحاثات في سوريا .

(١٩) Italoconsult, Water and Agricultural. Development Surveys for Areas II. and III., Final Report, Wadi Dwasir, Rome 1969, P. 5.

(٢٠) شوقي صنيف ، الشعر الجاهلي ، ص ٨٠ .

(٢١) الغضف : الكلاب ذات الآذان المسترخية ، الدواجن : المدربات ، قافلا : يابسا ، الاعصام : قلائد جلدية تعلق في اعناق الكلاب .

(٢٢) اعتكرت : رجعت . المدرية : القرون الحادة . السمهرية : الرماح .

(٢٣) الحمام : الموت . احم : حان .

(٢٤) تقصدت : قتلت من قولهم رماه فاقصده .

(٢٥) سبقت الاشارة الى انه يوجد نيف وثمانون شاعرا عاشوا في عصر الجاهلية ولهم اشعار مدونة يمكن الرجوع اليها ودراستها .

(٢٦) شوقي صنيف ، الشعر الجاهلي ، ص ٨٣ ، نقلا عن الجاحظ .

(٢٨) المرجع السابق ، نقلا عن طبقات الامم (طبع بيروت) .

(٢٩) كارلو نلينو ، علم الفلك ، ص ١٢٧ .

(٣٠) نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، بيروت سنة ١٩٧٠ م ، ص ٥٥ .

(٣١) العرب تسميتها نكباء لانها نكبت عن مهب الرياح اي عدلت .

(٣٢) حلبات القطر بعد القطر من المطر ، ويقال اصابتهم اهضوبة من المطر .

(٣٣) هيفان الجنوب .

(٣٤) اعراف جمع عرف وهو الرمل المرتفع .

(٣٥) الاعافر : الرمل الأحمر أو ما بين الابيض والاحمر •

(٣٦) الوسمي : مطر الغريف •

(٣٧) الهمداني ، صنعة جزيرة العرب ، ص ٢١٤ •

(٣٨) كانوا يستخدمون نوعين من الشجر هما « السلع والعشر » لذلك الغرض •

(٣٩) نوري حمودي ، من ص ٦٣ ـ ٦٤ ، وينسبها بتحفظ الى امية بن أبي الصلت اعتمادا على ما ذكره الجاحظ (الحيوان ٤/٤٦٦) •

(٤٠) الشكر : الشعر القصير بين الشعر الطويل •

(٤١) الصبير : السحاب الذي يظل يوما وليلة ولا يبرح •

(٤٢) بدا هذه التجارب Vonnegut في نوفمبر سنة ١٩٤٦ م •

(٤٣) Martin Simons, Deserts, 1967, PP. 76-78.

(٤٤) محمد بن عبدالله بليهد ، صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار ، الطبعة الثانية ، جا، ص ١٠ •

(٤٥) لسان العرب ، ج٢ ، ص ٢٤٢ •

(٤٦) جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، جا ، بيروت سنة ١٩٦٨ ، ص ١٤٧ •

(٤٧) نوري حمودي ، ص ٤٠ •

(٤٨) اللوبه أو اللابه هي ما اشتد سواده وغلظ وانقاد على وجه الارض مـن الحمم البركانية (لسان العرب ـ ٢٠/٢٤٢) •

(٤٩) الف الأصمعي كتابا فيها وهو « الدارات » •

(٥٠) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، صص ٤٢٤ ـ ٤٣١ •

(٥١) الزبيدي ، تـاج العروس ، طبعة دار ليبيـا ، بنغازي ، ج٣ ، صص ٢١٣ ـ ٢١٥ ، معجم البلدانن ، ج٢ ، صص ٤٢٥ ـ ٤٣٢ •

(٥٢) نوري حمودي ، ص ٣٦ •

(٥٣) معجم البلدان ، ج١ ، صص٣٩٠ ـ ٣٩٩ .

(٥٤) لبيد ، الديوان / ٤٤ ، نوري حمودي ، ص ٣٨ .

(٥٥) نلينو ، علم الفلك ، ص ١٢٦ .

(٥٦) البيروني ، الآثار الباقية ، ص ٣٣٩ .

(٥٧) يوسف توني ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٥٨) عبدالله بن ناصر الوهيبي ، مجلة العرب ، العدد الخاص بالندوة العالمية الاولى لدراسة تاريخ الجزيرة العربية ، تحديد الشعراء العرب للمواقع الجغرافية ، صص ٨٩٣ ـ ٨٩٤ .

(٥٩) حمد الجاسر ، في شمال غرب الجزيرة ، نصوص ، مشاهدات ، انطباعات ، منشورات دار اليمامة ، سنة ١٩٧٠ ، ص ٧ .

(٦٠) عبدالله بن بخيت ، المجاز بين اليمامة والحجاز ، ص ١٥٣ .

(٦١) حمد الجاسر ، في شمال غرب الجزيرة ، ص ٧ .

(٦٢) يقصد أماكن وظاهرات جغرافية .

(٦٣) حمد الجاسر ، في سراة غامد وزهران، نصوص ، مشاهدات ، انطباعات، منشورات دار اليمامة، سنة ١٩٧١ ، صص ٤٧ ـ ٤٩ .

(٦٤) بن بليهد ، في حاشيته على كتاب « صفة جزيرة العرب » .

(٦٥) محمد بن عبدالله بن بليهد ، صحيح الاخبار ، ص ١٠ .

(٦٦) عبدالله بن خميس ، المجاز بين اليمامة والحجاز ، صص ٣٦ ـ ٤٠ .

(٦٧) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٦٨) بن بليهد ، صحيح الاخبار ، ص ٣٧ .

(٦٩) كراتشوفسكي ، الأدب الجغرافي ، ص ٤٤ .

(٧٠) يوسف توني ، ص ٢ .

(٧١) أبو منصور الثعالبي ، فقه اللغة ، ص ٥٤ ـ ٥٥ .